نظرة في :

المبادىء الاولى

وهي حجر زاوية فلسفة النشوء

لحنا خباز

﴿ تمهيد ﴾ : انطبع في عقل سبنسر فكر سام، هو وحدة الناموس العامل في الطبيعة ، وفي الحياة ، وفي العقل ، وفي الاجتماع ، وفي الاخلاق . وأصدر مؤلفات متعددة يمكننا أن نتتبع فيها تدرُّجهُ نحو نظامه الفلسفيّ . ولاسيما كتاب « مبادىء علم النفس » سنة ١٨٥٥ . وقد فسّر به ظاهرات العقل طبقاً لمبادىء النشوء . ثم أصدر سنة ١٨٥٧ كتاب « الارتقاء ، ناموسه وعلّته » . ورأى سنة ١٨٥٨ انه يجب ان تكون هذه الفكرة أساساً لتفسير الحياة والعقل والهيئة الاجتماعية والاخلاق والديانة . هذا هو أصل « الفلسفة المركبة » Synthetic Philosophy . فكتب سبنسر فهارسها سنة ١٨٥٨ و١٨٥٩ وطبع تلك الفهارس سنة ١٨٦٠ . ثم شرع في التأليف ومضى فيه ستّاً وثلاثين سنة . وانتهى من ذلك سنة ١٨٩٦ . ودعيت فلسفته « الفلسفة المركبة » ، وهي تدعى كذلك « فلسفة النشوء » [illegible] فأصدر كتاب « المبادىء الاولى » سنة ١٨٦٠ . فكان كتاب سبنسر هذا وكتاب دارون في « أصل الانواع » ميدان الحركة الفكرية في اوربا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

اشتهر في تلك المعركة الاستاذ هكسلي زعيم الطبيعيين في الداروينية وفي اللاأدرية . فكان نصير دارون وسبنسر كليهما . كان الفيلسوف اسحق نيوتن قد أصدر كتابه « المبادىء » . والفلكي هرشل قد أصدر كتاب « النجوم من السماء الى الارض » . واكتشف فراداي بعدها مكتشفاته الكهربائية . وفتح الكيميائيان بويل ودالتن كنوز الكيمياء الخفية وكانت تلك المكتشفات عتيدة ان تكهرب الدنيا بأسرها . وكان الطبيعيان رمفرد وجول يبينان « تعادل القوة وحفظ النشاط » . ولكن الذي هزَّ اوربا الى الاعماق هو علم « الحياة ومذهب النشوء » فانتشرت العلوم الطبيعية في كل الدنيا

كان الفيلسوف كنت الالماني قد نظر في امكان تحول القرود بشراً . وكتب الشاعر الكلاسيكي جيته في تحول النباتات . ووسع العالم اراسموس دارون نطاق نظرية « ارتقاء

الانواع » . وعزّ سانت هيلار اوربا سنة ١٨٣٠ بتفوقه على كوڤييه في المناقشة الشهيرة في « النشوء » ضد ثبوت الانواع . فشاعت نظرية النشوء في اوربا . وتناقلتها الالسن سنة ١٨٥٠ وكتب سبنسر سنة ١٨٥٢ كتاب « فروض واقية » في نفس الموضوع . وعرض داروين وولاس مقالتيهما « في أصل الأنواع » في جمعية النبات . وأصدر داروين كتابه سنة ١٨٥٩ في أصل الانواع فحطم به الآراء القديمة تحطيماً . فعمّ التحدث في هذه الامور جميع انحاء الارض في أقل من عشر سنوات

رفع سبنسر عقله الذكي الى الاوج فطبق نظرية النشوء في كل فرع من فروع العلم . وكما ساد فلسفة القرن السابع عشر علم الرياضيات فأبرز الى الوجود ديكارت وسبينوزا وليبنتز وباسكال . وكما شاع علم النفس في القرن الثامن عشر فأنجب باركلي وهيوم وكوندياك وكنت . كذلك شاع علم الاحياء في فلسفة القرن التاسع عشر فأنجب شالنغ وشوبنهور ونيتشه وسبنسر وبرغسن

ألّف سبنسر احد عشر مجلداً في شرح فلسفته المركبة . منها مجلد واحد في « المبادىء الاولى » . واثنان في مبادىء « علم الاحياء » ، وثلاثة في مبادىء « علم النفس » ، واثنان في « علم الاجتماع » ، واثنان في « علم الاخلاق » ، وواحد في « علم الدين » . وكان هدفه الخاص تجلية الناموس الواحد — النشوء — في كل دائرة من هذه الدوائر

أحوّل النظر بعد هذه التوطئة الى « المبادىء الاولى » . ليس من شأن الفلسفة تفسير الكون تفسيراً يناقي العلم . فصرح الفلسفة يجب ان يشاد بمواد هيأها العلم . ولذلك كان ميدان الفلسفة الظاهرات ، وصفها وتفسيرها . ولا تحاول الفلسفة تخطي الظاهرات الى مسألة الكائن الازلي ، او اليقينية وراء تلك الظاهرات . ولا يعني ذلك انكار تلك اليقينية . فانها معلنة بظاهرات لا يقوى العقل على انكارها . وانما يدركها الشعور ، ادراكاً لا يمكن صوغه منطقيّاً . وفي اعتراف الفلسفة بالعجز عن ادراك ذلك الكائن ، بما لنا من عقل وعلم ، اقرار بوجوده . بل بضرورة وجوده . على ان الفلسفة مع ارتباطها بالعلم ارتباطاً لا يقبل الطلاق بحسب تفسير سبنسر ، فهي مع ذلك تحاول التقدم الى ما وراء حدود العلم . ولم تكن اللاأدرية أسس فلسفة سبنسر وهي نقطة يجب ان لا يغفلها محقق

يرمي كل علم الى تجريد يمتد الى أبعد مداه ، تبدو ضمن حدود ذلك التجريد ظاهرات العلم الخاص ، وتتوحد وتنطبق . ومتى انتهينا من ادراك الحقائق العامة التي تندرج تحتها حقائق جميع العلوم ، تؤلف النواميس العامة . فالفلسفة عبارة عن توحيد المعرفة أكمل توحيد ، فترجع الى مجموع كلي متلائم . ومهما يكن اسلوب المعرفة استقرائيّاً فلا غنى لها عن فرض تبدأ به . فاذا كان ذلك الفرض منتجاً وكانت نتائجه مطبقة ثبت ، واذا كان عقيماً سقط . ولما كانت الفروض تستلزم مئات الظاهرات وتباينها ، كان من المحتم ان تؤدي

الى وحدة المواد التي منها تبنى الفلسفة . ويجب ان تكون الخطوة الثانية اكتشاف النقائض التي تدل عليها التباينات ، وفي ذلك تستقل معرفتنا في التمييز بين الذات وبين غير الذات ، أي بين العين والمعنى . وليس هذا الكل ، بل اننا نجابه ادراكات المكان والزمان والمادة والحركة في حال اعتبارنا الاحوال التي تعلن الاشياء

يتناول العلم والذوق السليم يقينية هذه الاشياء . على ان التحليل يبين لنا ان المادة المحسوسة قابلة التحول الى شكل القوة التي لا تحول بعدها . ولما كان ادراك القوة ناشئة عن لا شيء ، وصائرة الى لا شيء ، محالاً ، بناءً عليه ، كانت القوة والنشاط الملابس لها ثابتي المقدار ، وهي ركن الوجود . ففي ثبوت القوة نبلغ اقصى حقيقة كونية هي أساس جميع العلوم . وحيث ان هذه الحقيقة وراء كل علم ، كانت فائقة البيان . فاذا قيل : ما هي هذه القوة ؟ فالجواب : لا أدري : فلا سبيل الى معرفة ماهية القوة التي وراء ظاهرات هذا الكون . انما نعرف تلك القوة السرمدية بهذه الظاهرات . لكننا لسنا نعرف كنهها

ونعني بثبوت القوة ، ثبوت علة فائقة الادراك . والبيان العام الذي تنشده الفلسفة يتخذ شكل تغير لتحول القوة تحت جميع صيغ المادة والحركة . بيان كهذا ممكن لدى معرفة بعض الحقائق المستنتجة مما عندنا من المواد الاصولية . يندرج في عداد تلك الحقائق بناء المادة ، وثبات الحركة . وبما ان المادة ثابتة لا تتحرك فهي لا تتغير بما تحدثه من التغيرات . فمن ثمة كانت العلاقة بين القوة ، التي ندعوها « العلة الاولى » ، وبين معمولاتها ثابتة لا تتنوع . فيقيننا ان العلة ضرورية ، وانها عمومية ، هو يقين يجب ان يتقدم جميع اعلاناتها وأفعالها . فنظرية تغير القوى ، وأفعالها ، ومطابقتها النواميس الطبيعية ، هي حقائق مستمدة من أعماق الشعور . وبما ان قوتي الجذب والدفع عاملان كل مكان وزمان ، فالحركة لا تكون الا في متجه أقل مقاومة وأعظم تأثيراً ، أو نتيجة الامرين معاً . فانحناء الحركة سرمداً ضمن حدود معينة بناموس اتزان الحركة المعلن في جميع الظاهرات مقترناً بثبوت القوة . وذلك الاتزان مزية كل حركة

هنالك حقائق تنشدها الفلسفة . وهي صحيحة في كل علم . ومن الممكن تجاوزها واستخدامها في توحيد الظاهرات الثابتة في جميع اجزاء الطبيعة . على اننا الى الآن لم نتخط الماديات في فلسفتنا . فقد عرفنا ما هي العوامل في جميع الظاهرات . فعلينا ان نفهم تعاونها في انتاج الكون في كل جزء من اجزائه . فكل علم ، متى تركبت عوامله الخاصة ، يحاول ان يبين كيف نشأت ظاهرته بكل ما فيها من تعقيد . فيجب ان تنشد الفلسفة والتركيب العام الذي يجمع كل هذه التراكيب الخاصة . فالمطلوب هو استنباط ناموس شامل جميع الظاهرات المعروفة . إن الكون بأجمعه دائم التغير ، مادة وحركة ، وتفسير الكون بهذا

الناموس هو الفلسفة المركبة ، لانه يعطي تاريخاً وقانوناً لتكوين ينسر كل شيء ، فناموس توزيع المادة والحركة هو ناموس النشوء والانحلال . وهو يتناول بالضرورة كل تغير يحدث في الكون ، من النظم الشمسية الى الحياة الانسانية ، ويقرر ذلك بعبارة عامة هي : — النشوء هو ثبوت المادة وتوزيع الحركة

تجتاز المادة في مجرى تطورها من متجانس غير محدود ولا متطابق الى تطابق محدود غير متجانس . وهذه العبارة من جوامع الكلم . فيلزمها شيء من البيان والامثلة ، فأقول: التجانس غير المحدود هو المادة الاصلية — هيولى — قبل تكوين الذرات Atoms . لكنها غير محدودة ، أي غير شكلية . وليس لها معنى ولا استقرار ، فهي في معرض التكوين كعالم الاثير مثلاً . ولما كان ناموس النشوء يعم جميع صور الحياة ، وفي جملتها العقلية والاجتماعية فيمكن القول في تطبيق العبارة على العقلية « ان الشعور في اول صوره — التحسس — هو متجانس غير محدود » . فالطفل وقد سمع صوتاً يلتفت الى الجهة التي ورد منها الصوت . لانه قد حصل عنده تحسس ، او شعور بسيط . ولكنه شعور غير محدود . اذ ان الطفل لا يدرك من معنى الصوت ، الا انه مؤثر يحدث فعلاً عكسياً . لكنه متى نما واتسع نطاق ادراكه واختباره ، فحينذاك يصير قادراً ان يميز بين صوت الطبل وزقزقة العصافير ، وهزيم الرعد ، وصوت المرضع . فيكون الحاصل حينذاك محدوداً غير متجانس . ذلك ما يقال في تطبيق ناموس النشوء في علم النفس وفي عالم المادة . اما في علم الاجتماع فالمادة الخام هي افراد البشر في حال الهمجية قبل ان يؤلفوا عائلات او هيئة

فأفراد الناس في ذلك الطور « متجانس غير محدود » . وهو واضح . فاذا تشكل الافراد عائلات ، وجماعات ، وهيئات دينية وسياسية ، فقد صاروا تبايناً محدوداً ، فثبتت المادة ، مع تغيُّر الحال . فالنشوء في اصطلاح سبنسر هو « اجتياز المادة من البسيط المتجانس الى المركب المتباين » . كاجتياز التفكر البسيط الى تصورات وتصديقات واحكام ، او اجتياز افراد البشر الى حال التمدن والعمران والسياسة ، او اجتياز المادة من غير العضوي الى العضوي . وفي حال العضوية من الحال غير الشكلية الى الشكلية . اي من مفردة الخلايا الى متعددة الخلايا . فقد ارتبطت الذرات برباط سري نؤكده ولا ندري ما هو . فندعوه الجذب ، او الحياة . فهذا الانتقال من حال الى حال فيها ما ليس في سابقتها ، هو في اصطلاحنا ارتقاء . وانتقال الاشياء من حال الى حال هو التشوء . هذا هو مفاد قول سبنسر ان « النشوء اجتياز المادة من تجانس غير محدود ولا متطابق الى تباين محدود متطابق »

ان الكهيربات متجانسة فاما ألفت الذرات الفردية تباينت اي تشكلت البسائط الاثنين والتسعين وهي التي ندعوها العناصر . لكنها في الحال الاولى غير متطابقة . وفي الثانية

متطابقة ومترابطة . فاليد في المجموع العضوي مطابقة الجسم ومرتبطة به . وكذلك الرأس والقلب والمعدة ؛ فهذا التطابق نشوء . او نتيجة النشوء . هذا ما أردت به تبيان عبارة سبنسر . ثم يقول :—

تتحمل الحركة تغيراً يماثل ذلك التوزيع ؛ فتوزيع المادة والحركة في تكوين المجموع يؤلف النشوء . فالنشوء زيادة التحديد ، وتحوّله الى مطابق محدود . وضده الانحلال وهو تحوّل المادة من متطابق متباين الى متجانس غير محدود كتحول العضوي بعد موته تراباً ؛ وتحول الحطب بعد حرقه رماداً .

ويصحب النشوء زيادة التجانس والتباين . فوحدة البناء التركيبي المشتملة على التجمع هي الوحدة الحاصلة بانضمام أجزاء متباينة في مجموع عضوي. هذا في علم الاحياء وفي علم وظائف الأعضاء . اما في علم الاجتماع فهو انضمام الافراد وتأليفها هيئة مركبة من زارع وصانع وعالم وحاكم وقاضٍ وكاهن ومهذّب الخ . فالنشوء تغير من متشابه الى متباين، سواء في ذلك نشوء الشجرة من بذرة الى باسق ذي أغصان وأوراق وأزهار وأثمار، او نشوء الحيوان من بيضة الى طائر ذي قوائم وخوافٍ وأجهزة ومجموعات ، فغير الناشىء هو البسيط ، والناشىء هو المركب . ويشترط في النشوء تركيب يؤلف وحدة عضوية مترابطة منوّعة الاجهزة والوظائف ، او مقسمة الاعمال . فهنا صيغة تعم في تجريدها جميع أطوار التغير في الكون، وبعبارة أضبط ، هناك صيغة تغير في كفة صاعدة . ولا ننسى ان الكفة الصاعدة تقابلها كفة نازلة مرتبطة بها ؛ فهو ميزان الوجود ترتفع احدى كفتيه برجحان الكفة الاخرى . فالقوى الضامنة البقاء هي في تنازع مستديم ضد عوامل الانحلال . والنشوء والانحلال ، او الحل والتركيب ، يؤلفان دائرة التغير . وفي هذه الدائرة تنحصر احداث الكون . وما ندعوه ناموس النشوء والانحلال يعم حوادث الكون بأجمعها

ويلزم اتخاذ خطوة أخرى قبل التقدم لتطبيق هذا المبدإ على أقسام الكون . والخطوة هي : ان صيغة النشوء اختبارية : توضح تجريداً أوسع ينطوي تحته كل تجريد آخر . فلا تطلب الفلسفة فقط تقريراً منظماً عن تغير الاشياء . بل ان يكون ذلك التغير ايضاً عقلياً

فيجوز لي أن أفهم من ذلك ان هذا النشوء الهي . لانه من اعمال العقل غير المحدود . يفهمه الانسان ذو العقل المحدود . والعقل يدرك آثار العقل في الطبيعة . وهذه العلاقة بين العقل المحدود والعقل غير المحدود هي اسّ الفلسفة والديانة في تاريخهما

تطلب الفلسفة ان يكون ذلك التغير اكثر من مجرد اظهار عمومية النشوء . وان يبين العلة مع تبيان المعلول . ولا يقتصر على وصفها تاريخيًّا . فيوضح لماذا كان النشوء عامًّا ، ولماذا تحتم حصول التغير في هذه الصورة دون غيرها . اي يلزم ان تكون صيغة النشوء

استدلالية . وقد تمّ ذلك استناداً الى نواميس ثلاثة : —

الناموس الاول : حال التجانس ؛ وهو شرط التقلب والتبدل . والمراد بالتجانس هنا التجانس النسبي لان المطلق غير مُدرَك

الناموس الثاني : تنشيء العلة الواحدة اكثر من معلول واحد

الناموس الثالث : تميل الوحدات المتباينة في كل تجمّع الى الانفصال والوحدات المتماثلة تميل الى الاتصال

هكذا وضعت أسس الفلسفة كمعرفة كاملة التوحيد وخص سبنسر بذلك كتاب (المبادىء الاولى)

***

يستخدم سبنسر في فلسفته اصطلاحات الميكانيكا ، لانهُ مهندس ، فيورد تاريخ نشوء الكون بعبارات المادة والقوة والحركة . وقد يظن القارىء ان مذهب سبنسر الفلسفي هو المذهب المادي . ولكن سبنسر يرفض المذهب المادي ، فحين يتكلم في المادة والقوة والحركة يفرغ جميع رموز افكاره المعقدة في رموز بسيطة . ولكن الرموز رموز ؛ والمسألة الكبرى لم تحل وهي مسألة الوجود . انما تُبعَد قليلاً الى الوراء . فالمادة والحركة مقر أقصى الاسرار ، هي ادراكات نعمل بها ، على انها مجرد علاقات الحقيقية التي لا يمكن ان تُدرك ، وهي مستترة وراء الظاهرات .

وغالباً ننسى انهُ ليس فقط توجد روح صالحة في الاشياء الشريرة ، بل انهُ توجد روح حقيقية في الاشياء الخاطئة . لذلك شرع سبنسر يبحث في الآراء الدينية ليجد ميدان الحقيقة التي لفظت الديانة في النفس الانسانية تحت صور متنوعة . فرأى ان كل بحث في اصل الكون ينتهي بالعجز عن الادراك ، فيحاول الملحد ان يعتقد ان الكون وجد لذاته ، وهو أمرٌ غير معقول . ويقول المؤمن ان الله خلق السموات والارض . فتظل أمامه مسألة الطفل التي لا تجاب . وهي : من خلق الله ؟ يعني ان الملحد والمؤمن عاجزان عن ادراك اللامتناهي . فجميع الآراء الدينية هي فوق ما يمكن ان ندرك . كذلك العلم ، فان الآراء العلمية القصوى هي وراء حدود الادراك . نرد المادة الى الذرات . ثم نرانا ملزمين بأن نحلل الذرات ؛ كما قسمنا الدقائق المادية، فنساق الى مشكلة ان المادة قابلة الانقسام الى ما لانهاية له » . وهذا ايضاً غير مُدرَك . وكذا الامر في تقسيم الزمان والمكان . فالتصوران الديني والعلمي سواسية هما في أقصى حدودهما غير مدركين . وكذا الحركة مكتنفة بحجب صفيقة ، مثلثة الاعتبار ، اي مادة وزمان ومكان ، وحين نحلل المادة لا يبقى سوى ناموس القوة التي تؤثر في حواسنا ، او تعارض عملنا . فمن يقول ما هي القوة ؟ هنا موقف الحيرة . فان التصور العلمي هو لغز يقينية لا تدرك . وتقود الطبيعيَّ ابحاثه الى لغز لا يمكن حله . وهو

تحسبه لغزاً قابلاً الحل فيتجلى له كبر العقل الانساني وصغره . كبره وقوته في كل ما يدخل ميدان اختباره، وصغره وعجزه في كل ما هو فوق مستوى اختباره . فيعرف اكثر من كل مخلوق ما هو الشيء الذي لا يُدرك

فالفلسفة الوحيدة هي عبارة هكسلي : لا أدري : وعلة ذلك كون المعرفة نسبية لا مطلقة وان الفكر البشري لا يكتشف الا العلاقات ، وبعضها لا جميعها . وقد صيغ العقل لمعالجة الظاهرات ولا شأن له في ما وراءها . حتى ان اللفظين « ظاهرات » و« نسبية » يشيران الى شيء وراءهما فوراء النسبية « المطلق » ووراء الظاهرة « اليقينية » . وحين نراقب عقولنا نرى أنّ لا مندحة لنا عما وراء الظاهرات . فينتج عن ذلك الايمان بالقوة الفاعلة وراء تلك الظاهرات . ولكننا لا ندري ما هي تلك القوة . فلا يتعذّر في هذا الموقف مصالحة العلم والدين . فان يقينية كليهما هي لا أدرية ؛ فليسلّم العلم بان نواميسه تنطبق على الظاهرات وذلك نسبيًّا . وليسلّم الدين بأن اللاهوت اسطورة معقولة . لان الايمان زواية بالعقل . وليكف الدين عن تصوير الله بصورة انسان هائل . فان ذلك تحقير له تعالى ؛ وليكف العلم عن انكار اللاهوت ، وعن التسليم بالمذهب المادي . فالعقل والمادة كلاهما ظاهرة ، وهما أثر مزدوج لعلة قصوى ، لا تدرك طبيعتها . ومعرفة تلك العلة لباب كل دين وكل فلسفة بل هي بدء كل فلسفة . وبعد تبيان ذلك تنحصر الفلسفة في ما يمكن ان يدرك

الميتافيزيقا سراب . وهي كما قال أحد الحكماء : فن انكار الانسان نفسه : فميدان الفلسفة الملائم ، ووظيفتها الخاصة ، جمع نتائج العلم . فالعلم يوحّد المعرفة ، والفلسفة تكمّل ذلك التوحيد . وهذا التوحيد يستلزم مبدءاً شاملاً يعمّ كل اختبار وجميع صور المعرفة . أفنجد مبدأ كهذا ؟ قد نتوصل الى ذلك اذا نحن حاولنا توحيد تجريدات الطبيعة وهي :—

١ : ثبوت المادة . ٢ : حفظ القوة ٣ : استمرار الحركة . ٤ : عدم تخلف الناموس ٥ تحوّل القوى وتعادلها . ٦ : نظام الحركة

ربما كانت هذه اللائحة غير معروفة فلا مندحة عن الاشارة اليها . الطبيعة مترابطة متسقة من تموّج الحرارة الى ارتجاج اوتار الكمان . ومن تموج النور الى مد البحر . ومن دوران النويرات الى دوران الكواكب والنجوم . ومن تعاقب الليل والنهار الى توالي فصول السنة . بل من تموج الذرات الى قيام الامم وهبوطها ، وتولّد النجوم واضمحلالها . كل هذا مما يدرك . وهي متحولة الى ناموس حفظ الطاقة . ولكن هنالك ما هو ساكن وعديم الحركة في المبدإ فما هو مبدأ اليقينية الدينامي / ناموس عام جميع الاشياء وتقهقرها ؟ هو ولا بدّ ناموس النشوء والاضمحلال . النشوء هو ثبوت المادة وتوزع الحركة

تمتاز المادة فيه من متجانس غير محدود وغير متطابق الى تباين متطابق محدود .

وتحمل الحركة في خلال ذلك تغيراً يطابقهُ . فما معنى ذلك ؟ المعنى هو نشوء الاجرام من العدم . وتكوُّن الجبال ، والمحيطات في الكرة الارضية . تجدد النبات والحيوان والانسان . نشوء القلب والعينين في الجنين . تصلب العظام بعد ولادة العضوي . اتحاد الاحساس والتذكر وتأليفهما معرفة . اتحاد المعرفة والتفكير كعلم وفلسفة . نمو الاسر الى عشائر ومدائن ودول وأمم . في كل ذلك ترى ثبوت المادة وتجمع المتفرقات الى كلٍّ . عمل كهذا يشتمل طبعاً على تقييد الحركة في الاجزاء ، كما تقيد الدولة حرية افرادها . فالنشوء هو التطور . كانت السدم سحباً فصارت عالماً مكوكباً ، وتبقع سطح الارض بالنبات ، وتوالدت الاجساد ، وتفرعت حلقات الهيئة الاجتماعية ، وتجلت المدارك ، وتشعبت العلوم ، وتمت الفردية ، وتمايزت الصفات . ولو تقت في كل أمة الخصائص الفردية . ثبات ، تنوُّع ، تجمُّع ، انقسام . هذه هي بؤرة النشوء

لم يكتف سبنسر بصورة التركيب ، فتخطاه الى ما يصحبهُ من عملية ميكانيكا . فهناك اولاً عدم ثبات الصورة . اي ان الاقسام المتماثلة لا تثبت طويلاً . لانها عرضة لتأثير القوى الخارجية التي تهاجمها مهاجمة القرصان السفن ، وغزو الدول القاتحة الاقطار المجاورة . وهناك مضاعفات . فقد تحدث العلة الواحدة مئات المعلولات . وهناك ناموس التفصل ، فتنفصل أقسام التماثل النسبي الى اشكال متنوعة مختلفة المقدار فتكوّن منتجات غير متماثلة كصيرورة الانكليز مثلاً اميركيين واوستراليين وكنديين ، بحسب طبيعة الاقليم . بهذه الصورة تحدث الطبيعة التنوُّع في الدنيا

وأخيراً نأتي الى التوازن ، الذي لا بد منه . تفنى كل حركة عاجلاً او آجلاً وينتهي كل تموج في كرور الادهار ويعيق المد والجزر سرعة الارض فتبطل حركتها . ويبرد الدم في العرق . وتتناقص حرارة الشمس ويتبدل بهاؤها . فتبطؤ حركتنا ونفكر بتقر راحتنا الابدي . لانهُ ليس لنا هنا مدينة باقية فنفكر بالنيرفانا . ويصير التوازن انحلالاً وهو ختام النشوء المحزن وتُنسى الهيئة ، ويزول التعاون ، وتخلفه الفوضى . ويصير الكون مشهد التقهقر . رواية مشؤومة . ورجعة محتومة ، تتم الدورة ، ويسود الانحلال . فالحياة مقدمة الموت

« فالمبادىء الاولى » رواية نقمة . تبين بأسلوب علمي الصعود فالهبوط ، في الاجرام السموية وفي ممالك الاحياء . مأساة يصح فيها قول هملت . البقية صامتة او « هامدة »

نعم إنا مائتون . لكننا بعامل الحرص على الكيان نؤثر الحياة . ففي سبنسر تحسس شوبنهوري في تلاشي الجهد الانساني وعبث الحياة

هذا هو موقف العقل في ميدان المبادىء الاولى التي عليها تبنى او منها تتفرع مناحي فلسفة النشوء او الفلسفة المركبة التي أبرزها سبنسر الى حيز الوجود وسبحان الحي الذي لا يموت